ذكرى قاسم امين

(تابع ما قبلهُ)

يرى قاسم : « ان الانسان يولد شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً . . » الخ . وليس معنى ذلك انهُ لا يؤمن الانتقال الوراثي بل هو يقرر هذا القول من جهة ان هذه الرذائل موجودة الاصول في النفس الانسانية بالقوة وليست النفوس الفاضلة عديمة الاستعداد لها مطلقاً بل غاية امرها انها بما فيها من صفات الخير اي من الفضائل تتغلب على هذه الشهوات فتصدم ظهورها بالفعل دون ان تجرد ما بالنفس منها بالقوة . وتكون هذه الكلمة جارية من حيث التعليل مجرى قولهِ في كلمتهِ :

« فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منهُ هي الحال الطبيعية اللازمة »

نتيجة لازمة لرقة الشعور وسلامة الذوق في تعرف الجمال ان يتعرض قاسم للكلام في العشق . وكيف لا يتكلم فيهِ . كيف لا يتكلم في معنى شغل نفوس كل الشبيبة بل كثيراً ما يتعداها الى غيرها من اطوار الحياة الاخرى . وما اظنهُ كان يتكلم فيهِ كلام رجل خالي الغرض بالمرة بل يظهر من تأليف عباراتهِ في الكلمات ٩ و ١٠ و ١١ و ١٣ و ١٤ و ٩٤ انهُ هو ايضاً ليس بعيداً عنهُ . وقليلاً ما كان النظر المجرد الى الحوادث او الفكرة في معنى الحب يعطيان وحدهما هذا الوصف دون ان يكون للوجدان دخل فيهِ . على ان الحب في نظر قاسم هو الهوى العذري او العشق الشعري . وهو على ما وصفهُ ليس بعيداً عن طبائع الاشياء وفي الحق ان الطبيعة لا تركب في المرء اي احساس عشقاً بل لا بد لها من ان تقصد بهِ غرضاً من اغراضها ولقد فسر ذلك بان الولد الذي يولد من زوجين متحابين ابلغ في مقدار الحياة الانسانية من سواهُ فكأن هذا الشعور بين الزوجين انما كان لبقاء الاصلح

ان نفساً على ما وصفتُ كثيرة الاطلاع على ذاتها والجد في تهذيبها لا بد لها من ان تمروها السآمة الوقت بعد الوقت ويكون من دأبها العزلة وحب الانفراد كما قال قاسم

« وجدت السآمة غالباً في الاجتماعات وما شعرت بها في الوحدة . اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدني فيهم فافر منهم وارجع ملتجئاً الى نفسي فاجد فيها الراحة والسرور »

على ان من لوازم هذه النفس المسؤومة الجنوح الى الصداقة على اتم معناها الممكن

تلقي بنفسها بين ذراعيها وتجد منها مرتلاً من السآمة ومفراً من حزن الخلوة. قال قاسم:

« اكبر سرور السرور الوحيد الذي يخفف عن الانسان حمل الحياة ويرغبهُ في بقائها وينسيهِ الزمن والساعة و يجعلهُ يتمنى ان يحكم عليهما بالوقوف هو ان يوجد في بيت صديق عزيز ويجلس على كرسي بستريح فيهِ محاطاً باشياء اعتاد ان يراها بنظرهِ ويلمسها بيدهِ وفي هذا الجو الذي يشرح صدرهُ ويسكن اعصابهُ يقضي زمناً من الليل في احراق سجائر وهو ينظر الى الدخان الذي يتصاعد منها الى السقف يتحدث مع اشخاص من يحبهم فيخاطبهم ويسمعهم بلا تكلف ولا تحضير ولا حساب يفتح قلبهُ ويفرح عن احساساتهِ المحبوسة و يترك زمام عقلهِ على هواهُ يمشي ويرتع وينط فرحاً بحريتهِ في اختلاط الافكار وائتلاف القلوب يجد على هذا الشكل لذة مسكرة لا شبيه لها »

وربما كان ذلك الصديق العزيز الذي يعنيهِ في هذه الكلمة هو صديقهُ سعد زغلول باشا فانهُ كان قد بلغ من صداقتهما انهما يكادان لا يفترقان واليهِ اهدى كتابهُ (المرأة الجديدة) بهذه الجملة المؤثرة :

« فيك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفتكر وارادة تعمل انت الذي مثلت اليَّ المودة في اكمل اشكالها فادركت ان الحياة ليست كالمعتاد وان فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها

« من هذا امكنني ان احكم ان هذه المودة تنتج ساعات احلى اذا كانت بين رجل وزوجتهِ ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لاعلنهُ لابناء وطني رجالاً ونساءً »

كذلك لا بد لمثل هذه النفس العميقة الهائجة تحت صورة وديعة هادئة من ان تضيق يوماً عن احتمال مقاصدها وهمومها فتنجلي منها هذه المقاصد بالكتابة او الخطابة — هكذا كان قاسم فانهُ لم يكتب ليكتب او ليجب ولكنهُ كان يكتب كما قال سعد زغلول باشا على قبرهِ

« يا قاسم غيرك يكتب ليرضي واما انت فكنت تكتب لتنفع »

رأى قاسم بعد التفكير ان السعادات المختلفة لكل امة انما هي نتائج حالهِ الاجتماعية ورأى الجمعية المصرية وقتئذٍ قليلة الصفات التي تسلحها لمزاحمة على مرافق الحياة في الوقت الحاضر فرأى انهُ لا بد من تغيير حال الجمعية الى حال تتفق مع مقتضيات المزاحمة الحالية. ولا شك ان من يحاول الاصلاح الاجتماعي انما يمشي بامر اللغة التي هي ركن الجمعية والحرية التي هي شرط لازم لصحة الجمعية وسلامتها والعائلة التي هي الجمعية الصغرى او اس الجمعية الكبرى فان اجزاء الجمعية انما هي العائلات لا الافراد

لذلك بحث قاسم من حيث هو كاتب اجتماعي في اللغة وقال عن الحرية وافاض في اصلاح العائلة المصرية او تحرير المرأة المصرية

قال في اللغة بياناً خلفا وانتقاداً على طريقة الرسم فيها :

« في اللغات الأخرى يقرأ الانسان ليفهم . اما في اللغة العربية فانهُ يفهم ليقرأ فاذا اراد ان يقرأ الكلمة المركبة من هذه الاحرف الثلاثة (ع ل م) يمكنهُ ان يقرأها علْم او علِم او علَم او علُم او علّم او علَّم . ولا يستطيع ان يختار واحدة من هذه الا بعد ان يفهم معنى الجملة فهي التي تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من اصعب الفنون »

وفي مقام انتقاد الذين يوثقون اللغة بوثاق شديد حتى لا تتبع قانون الرقي والتحول قال الكلمات الآتية :

« لا ادري ما هي غاية الكتّاب الذين اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة الاتومبيل . ان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية . وان كان مقصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كفوا انفسهم امراً مستحيلاً اذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

« يظهر ان باب الاجتهاد اغلق في اللغة كما اقفل في التشريع فقد صار من المقرر بيننا ان اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء

« لكي يكون هذا الاعتقاد صحيحاً يجب ان نفرض ان هذه اللغة نتيجة معجزة فظهرت كاملة من يوم وجودها في العالم . وهذا يناقضهُ قيام الدليل على ان جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقي العام وتابعة في اطوارها لسير الانسانية فهي اذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التي لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت في الماضي . ولا ادري لماذا يريد قومنا ان يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التي تعمها احياناً في لغة العامة بحجة انها لم ترد على لسان العرب . نحن خلفاء العرب في لغتهم فكل ما تخترعهُ ملكاتنا في اللغة يعد عربياً بالطبع »

وفي مقام وصف علاج اللغة قال :

« لم ار بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . اليس هذا برهاناً كافياً على وجوب اصلاح اللغة العربية

«بقي رأي في الاعراب اذكره هنا بوجه الاجمال وهو ان تبقى اواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك باي عامل من العوامل . بهذه الطريقة وفي طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية ايضاً يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون ان يترتب عليه اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هي »

اما انتقادهُ فانّا نشاركهُ فيهِ من جميع الوجوه واما العلاج الذي ذكرهُ فقد يكون غير نافع في ترقية اللغة بل قد تنحصر الفائدة منهُ على اقتصاد بعض قواعد ليس في تعلمها والمران بمراعاتها مشقة . ولكن ضرر هذا الرأي الذهاب بشخصية اللغة فان بعض اللغات الاخرى تتغير فيها اواخر الكلمات باختلاف مراكزها في الجملة او بحسب العوامل الداخلة عليها ومع ذلك فهي سائغة لاهلها سائرة في طريق الرقي والنجاح

والظاهر ان تأخر اللغة جاء من الاهمال في تعلمها ومن القضاء على التعليم بكل انواعهِ في الاقطار العربية في القرون الماضية . ولقد بدأ الناس يتعلمونها وبدأوا كذلك يتعلمون بها العلم فلا بد من رجوعها الى شبابها ولكن لا بد لذلك من ان لا يقف اهل اللغة بها عند الحد الذي وصلت اليهِ الآن كأنها نتيجة معجزة كما قال بحق قاسم بك امين . بل يقبلون لها الزيادة المتفصلة للضرورة مع مراعاة دفع الحرج عن الناس

لو فعل اهل اللغة ذلك لما وصلت بعد الى الحد المطلوب بل لا بد لهم من التفكير في اصلاح العيوب التي وضع قاسم اصابعنا عليها كما وضع اصابعنا على جراحنا الاجتماعية وجعل يداويها واعني بهذا آراءهُ في تحرير المرأة والمرأة الجديدة

لم يكن قاسم في محاولة هذا الضرب من الاصلاح مقلداً تقليداً مجرداً كما ادُّعي عليهِ . بل هو فوق ذلك القائلُ وهو اصدق رواية لرأيهِ ممن عداهُ

« مهما كان الرأي في حكم الاتراك لمصر فلا ريب عندي ان الامة المصرية استفادت منهم كثيراً . وجدت فيهم انسانية رافية فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة وترتيب المسكن والتفنن في الملبس والمأكل وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الادبية

« واذا كان التعليم قرّب ما بين الرجال من المسافة فهي لا تزال الى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى انك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالاولى بقدر ابتعادهم عن الثانية . واليوم وجد المصريون والاتراك ... امامهم انسانية ارقى اختلطت بهم اختلاطاً كبيراً فاخذوا يقلدون الاوربيين في جميع شؤون حياتهم ولا ارى ان هذا التقليد سيكون لهُ اثر حميد في انقاذ امتنا من الحال التي هي فيهِ الآن »

ثم لم يرد قاسم تقليداً مجرداً لا يصدر الا عن مفتون بالمدنية الغربية ينقلها الى قومه بلا حساب لنتائجها ولا قياس لما بين الشرق والغرب من اختلاف . انما اراد اصلاحاً اجتماعياً مصدره الشريعة ومنهجه التربية والتعليم . وغايته تأهيل الجنس اللطيف في مصر للحياة والعمل فيما هو ميسر له . او بعبارة اخرى غايته رفع مستوى القوى الاجتماعية في الامة المصرية الى كفاءة المزاحمة في الحياة المدنية

ما كان جمود الجنس اللطيف في الطبقتين الوسطى والعليا وتجرده عن الحياة بالمرة اكتشافاً اكتشفه قاسم بك امين . انما هو حقيقة ناصعة يبصرها الاعشى ويعيها الاشل . حقيقة تجبه المتعلم كلما دخل دار ابيه او زار ذوي الارحام . حقيقة ظهرت آثارها ظهوراً محزناً في فشل السائلات الحديثة التي تتألف من متعلم ذي اطلاع في الحياة المنزلية وفتاة أسيفة لا خلق مطمئن ولا عقل هاد ولا علم حتى بترتيب الاثاث بيتها . هذه الحقيقة المحزنة كانت موضع نظر الطبقة المتعلمة في البلاد . وكلهم يرى ضرورة الخروج من هذه الحال التعسة فلم يجرأ ولا واحد منهم ان يتحمل مسؤلية معاداة القديم . الا قاسم فانه لعظم ما به من مبلغ الحياة ولما ذكرت لكم من الصفات مد يده ليأخذ بناصر المرأة المظلومة وليعبر عن الشعور الذي اختمر في مشاعر بيئته وليحمل وحده مسؤلية اضاعهم . ومثل قاسم بها جدير

جاء قاسم للاصلاح من بابه . وذكّر الناس بان حبس المرأة على هون امر ابطله الاسلام وان حرية المرأة امر ضيعي قرره الاسلام . وان طلب العلم والتفكير واجب على المرأة كما هو واجب على الرجل بشريعة الاسلام . وان المرأة في الدين الاسلامي أوفى حقاً من كل نساء العالم . وان حبسها عن الجهل بامور الحياة وعن التمتع بالفوائد العقلية وارادتها على التعطل الا عن الحلى كل ذلك مصدره الاستبداد

وضع هذه الاصول ثم ابان ما يترتب على الزواج المبني على اصل من المحبة بين الزوجين والاختيار في عقد الزواج من النتائج الاخلاقية والسعادة المنزلية وما يترتب عليها من زيادة في مبلغ الحياة والنتائج الاقتصادية والنتائج الاجتماعية التي في رفع مستوى الامة كما قدمنا للمزاحمة في معترك الحياة العامة

***

غير اني اشير لكم الى ما قوبل به قاسم تلقاء هذا الخير الذي زفه الى امته . لاقى ما لاقاه كل مصلح من قبل . طعن كثابي هو اشد ضروب الطعن . طعن من جميع المقامات حتى من الذين يعلمون . كان من قرأه ومن لم يقرأه سواء في الطعن عليه . كذلك حال الرأي

العام تلقاء كل اصلاح اجتماعي على الخصوص لانهُ دائماً طعنة مميتة في صدر المألوف وما اشد شغف الرأي العام بالمألوف كما قال قاسم :

« اذا رأيت الرأي العام يرمي احد رجال الحكومة بالخيانة ساخطاً عليهِ شديد الرغبة في سقوطهِ فاعلم انهُ غالباً رجل طاهر وعالم نافع . واذا رأيت الرأي العام معادياً لكاتب وأعدّ له خصوماً يتسابقون الى نقض افكارهِ وهدم مذهبهِ وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا في مطاعنهم الى السب والقذف فتحقق انهُ طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليهِ الحق . ما هو الرأي العام أليس هو في كثير من الاحوال هذا الجمهور الابله عدو التغيير خادم الباطل ومعين الظلم . لو انتظر المصلحون دائماً رضاء الرأي العام لما تغير العالم عما كان عليهِ من زمن آدم وحواء »

على ان الرأي العام اذ يجني على اشخاص المفكرين ينشر بعناده مذاهبهم كانما الباطل يعين الحق احياناً على النشك بهِ وعلى هذه السنة انتشر مذهب قاسم . انتشر واخذ مأخذهُ من النفوس حتى اصبحنا الآن لا نعلم رجلاً في البلاد يعارض في تعليم البنات

الى تحكّم الرأي العام في حرية الرأي يشير قاسم بقولهِ :

« الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر . في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بانهُ لا وطن لهُ ويكفر بالله ورسلهِ ويطعن على شرائع قومهِ وآدابهم وعاداتهم ويهزأ بالمبادىء التي لقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكر احد ولو كان من الد خصومهِ في الرأي ان ينقص شيئاً من احترامهِ لشخصهِ متى كان قولهُ صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل ان تبلغ هذه الدرجة من الحرية »

ان الذين اعتدوا على حرية الرأي بالتعرض لاشخاص المفكرين عقاباً لهم على مذاهبهم لم يبوؤا الاّ بشبعة جناياتهم دون ان يبلغوا منها ما يريدون . هب انهم بلغوا ما ارادوا من اشخاص سقراط ومن جليلي ومن ابن رشد ومن اضرابهم فهل قضوا على مذاهبهم . كلاّ انما هم قصدوا الى ان يقتلوا شوق الانسان الى الكمال . وعبثاً يفعلون فالطبع غالب دائماً على امرهِ

لا تعجبوا من الجهلاء الذين لا يحسنون حرية النقد العلمي . بل احق منهم بالعجب العلماء الذين يشفقون على الشبان من جراء الحرية العلمية وهم يظنون ان التطرف فيها هو دائماً اخف ضرراً مما تورثهُ طبائع الاستبداد

ايها السادة

اعترف بأني لم اوفِ درس قسم حقهُ من البحث والايضاح لان ذلك غير ميسور في مسامرة واحدة وحسبي لفت الاذهان الى درسهِ حتى تتم الفائدة المحسنة به ويكثر فيها مثلهُ من الكتاب الذين وصفهم بقولهِ:

« ولكن الكاتب المحب لفنهِ ينشر افكارهُ كما هي ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل ان يبدل فيها او يغير منها او يتنازل عن حرف مراعاة لاي امر كان. هو العاشق الذي يعتقد الكمال فيما يحبهُ ولا يتصور وجود شيء يعادلهُ ولا يبالي بذم الناس بل يجد فيهِ نوعاً من حماسة الغضب متهماً لاعصابهِ مشفقاً لقواهُ مغرياً لهُ على الاستمرار والثبات »

احمد لطفي السيد

مصر منذ اربعمائة سنة

(٧)

السلطنة المصرية

بقية المقاطعات والكاشفيات

اما الكاشفيات التابعة فواقعة شرقي النيل وهي:

المقاطعة الحادية عشرة. كاشفية المنيا وهي كثيرة الاتساع الا ان بلادها الآهلة بالسكان قليلة وليس فيها سوى ٩ بلدٍ وحاكمها يدفع للباب اثني عشر كيساً وفي الاغاوات اربعة اكياس وقسطها المفروض عليهِ من خراج السلطنة مائة الف اردب من القمح ولا تدفع مالاً. والكاشف يؤجر الاراضي الى الملتزمين حسب تقدير دفاتر الديوان ولا تروى اراضي هذه الكاشفية الا متى زاد مقياس النيل على ثمانٍ وعشرين ذراعاً ونصف واذا انخفض عن ذلك تبقى بوراً ولا يزرع فيها الارز ولا القصب لصعوبة الري.

المقاطعة الثانية عشرة. كاشفية الشرقية. وهي صغيرة وحاكمها يدفع للباشا خمسة اكياس وفي الاغوات وغيرهم كيساً ونصفاً وقسط هذه الكاشفية من خراج السلطنة عشرون الف اردب قمح وعشرون كيساً وعندهُ من الاجناد السباهية ٣٥ وعدد بلادهم ٣٢٠ ويزرع في اراضيها القمر والارز.

وعند حدود مصر الشرقية مقاطعة صغيرة في برية سيناء تدعى كاشفية قطية وحاكمها